# القلب المسكين
## ـ ٢ ـ

أمَّا صاحب القلب المسكين فرأى الضِّحكة التي ألقت بها صاحبته وهي ترقص حين عرفته ؛ غير ما رأيتُها أنا ، وغيرَ ما رأى النَّاس : كانت لنا نحن ابتساماً عذباً من فمٍ جميلٍ يتمُّ جماله بهذه الصُّورة ، وكانت له هو لغةً من هذا الفم الجميل يُتمُّ بها حديثاً قديماً كان بينهما ؛ واعترانا منها الطَّرب ، واعتراه منها الفكر ، ووصفت لنا نوعاً من الحسن ، ووصفت له نوعاً من الشَّوق ، ومرَّت علينا شعاعاً في الضَّوء ، ووقعت في يده هو كبطاقة الزِّيارة ، عليها اسمٌ مكتوبٌ .

وقوي إحساسُ الرَّاقصة الجميلة بعد ذلك ، فانبعث يدلُّ على نفسه ضروباً من الدَّلالة الخفيَّة ، ورجعت بهذا الإحساس كالحقيقة الشِّعريَّة الغامضة المملوءة بفنون الرَّمز والإيماء ، وكأنَّها زادت بهذا الغموض زيادةً ظاهرةً ؛ وللمرأة لحظاتٌ تكون فيها بفكرين حينما يكون أحد الفكرين ماثلاً أمامها في رجلٍ تهواه ففي هذه السَّاعة تتحدَّث المرأة بكلامٍ فيه صمتٌ يشرح ، ويفسِّر ، وتضطرب بحركةٍ فيها استرخاءٌ يميل ، ويعتنق ، وتنظر بألحاظٍ فيها انكسارٌ يأمر ويتوسَّل ، وكانت هي في هذه السَّاعة . . فغلبت ـ والله ـ على صاحبها المسكين ، وتركت نفسه كأنَّها تنقطع فيه من أسفٍ ، وحسرةٍ ؛ ثمَّ كانت له كالزَّهرة العبقة : بينه وبينها جمالُها ، وعطرُها ، وهواؤها ، والحاسَّة الَّتي فيه .

وجعل يستشفُّها من خِلال أعضائها وهي ترقص ، ثُمَّ قال لي : انظر ويحك ! لكأنَّ ثيابها تضمُّها ، وتلتصق بها ضمَّ ذي الهوى لمن يهوى .

قلت : ما هي إلا كهاتين اللَّتين ترقصان معها امرأةٌ بين امرأتين ؛ وإن كانت أحسن الثلاث .

قال : كلا ! هذه وحدها قصيدةٌ من أروع الشِّعر ، تتحرَّك بدلاً من أن تُقرأ ، وتُرى من أن تُسمع ؛ قصيدةٌ بلا ألفاظٍ ، ولكنَّ من شاء وضع لها ألفاظاً من دمه ؛ إذا هو فهمها بحواسِّه ، وفكره ، وشعوره .

قلت : والأخرَيان ؟

قال : كلا ! كلا ! هذا فنٌّ آخر ، فالواحدة من هؤلاء المسكينات إنَّما ترقص بمعدتها . . . ترقص للخبز لا غير ؛ أمَّا ( تلك ) فرقصُها الطَّرب مصنوعاً على جسمها ، ومصنوعاً من جسمها ، إنَّها كالطَّاووس يتبختر في أصباغه ، في ريشه ، وفي خُيلائه بخترةً يضاعفها الحسن ثلاث مرَّات ، ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر أحمرِها ، وأخضرِها ، وأصفرِها ، وأزرقِها ، والآخر من الأزهار في ألوانها ، ووشْيها ، ثمَّ اختالَ الطَّاووس بينهما ناشراً ذيله في كبرياء روحه الملوَّنة ؛ لظهر فيه وحده اللَّون الملك بين ألوانٍ هي رعيتُه الخاضعة .

* * *

وانتهى رقص الحسناء الفاتنة ، وغابت وراء السِّتارة بعد أن أرسلت قُبلةً في الهواء . . . فقال صاحبنا : آه ! لو أنَّ هذه الحسناء تصدَّقت بدرهمٍ على فقيرٍ ، لجعلته لمسةُ يدها درهماً ، وقُبلةً .

قلت : يا عدوَّ نفسه ! قُبلةٌ محررةٌ مسدَّدةٌ وقد رأيتُها وقعتْ هنا .

ولكنَّك دائماً في خصامٍ بين نفسك وبين حقائق الحياة ، تعشق القُبلة ، وتخاصم الفم ؛ الَّذي يبقيها ، وتبني العُشَّ ، وتتركه فارغاً من طيره ، إن امرأة تحبُّك لا بُدَّ منتهيةً إلى الجنون ما دامت معك في غيرِ المفهوم ، وغير المعقول ، وغير الممكن .

ثمَّ بدأ فصلٌ آخر على المسرح ، وظهر رجالٌ ، ونساءٌ ، وقصَّةٌ ، وكان من هؤلاء الرِّجال شيخٌ يمثِّل فقيهاً ، وآخر يمثِّل شُرطيّاً ، فقال صاحبنا الفيلسوف : لقد جاءت هذه الثِّيابُ فارغةً ، وكأنَّها الآن تنطلق أنَّ صحة أكثر الأشياء في هذه الحياة صحَّةُ الظَّاهر فقط ، ما دام الظَّاهر يُخلع ، ويُلبس بهذه السُّهولة ، فكم في هذه الدُّنيا من شرفاء ، لو حقَّقتَ أمرهم ، وبلوت الباطنَ منهم ، إنَّما يشرِّفون الرَّذائل ؛ لأنَّهم يرتكبونها بشرفٍ ظاهرٍ . . . وكم من أغنياء ليس بينهم وبين اللُّصوص إلا أنَّهم يسرقون بقانون . . . وكم من فقهاء ليس بينهم وبين الفجَرة إلا أنَّهم يفجرون بمنطقٍ وحجَّةٍ . . . ليست الإنسانيَّة بهذه السُّهولة الَّتي يظنُّها من يظنُّ ، وإلا ففيمَ كان تعبُ الأنبياء ، وشقاء الحكماء ، وجهادُ أهل النُّفوس ؟ .

**العقدة السَّماويَّة في هذه الأرض : أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلق الإنسان إلا حيواناً مُلطَّفاً تلطيفاً إنسانيّاً ، ثمَّ أراه الخيرَ ، والشَّرَّ ، وقال له : اجعل نفسك إنساناً وجئني .**

قلت : يا عدوَّ نفسه ! فما تقول في حبِّك هذه الرَّاقصة وأنت حيوانٌ ملطَّفٌ تلطيفاً إنسانيّاً ؟ .

قال : ويحك ! وهل العقدة إلا هنا ؟ فهذه مبذولةٌ ممكنةٌ ، ثمَّ هي لي كالضَّرورة القاهرة ، فلا يكون حبُّها إغراءً بنيلها ، ولا تكون سهولة نيلها إلا إغراءً لذلك الإغراء ، فأنا منها لست في امرأةٍ وحبٍّ ، ولكنِّي في امتحانٍ شديدٍ عَسرٍ ، أغالب ناموساً من نواميس الكون ، وأدافع قانوناً من قوانين الغريزة ، وأظهر قوَّتي على قوَّة الضَّرورة الميسَّرة بأسبابها ، وهي أشدُّ الضَّرورات عنفاً ، وإلحاحاً ، وقهراً للنَّفس من قِبَل أنَّها ضرورةٌ لازمةٌ ، وأنَّها مهيَّأةٌ سهلةٌ ، فلو أنَّ هذه المرأة المحبوبة كانت ممنعةً بعيدة المنال ؛ لما كانت لي فضيلةٌ في هذا الحبِّ العنيف ، ولكنَّها دَانيةٌ ميسَّرةٌ على الشَّغف ، والهوى ، فهذا هو الامتحان لأصنع أنا بنفسي فضيلة نفسي ! .

* * *

ومرَّ الفصل الَّذي مثَّلوه ، وما نشعر منه بتمثيلٍ ، فقد كان كالصُّورة العقليَّة المعترضة للعقل ، وهو يفكِّر في غيرها ، وكانت ( الحقيقة ) في شيءٍ آخر غير هذا ، ومتى لم يتعلَّق الشعور بالفنِّ ؛ لم يكن فيه فنٌّ ، وهذا هو سرُّ كلِّ امرأةٍ محبوبةٍ ، فهي وحدها الَّتي تثير شعورَ المحبِّ في نفسه ، فيشعر من حسنها بحقيقة الحسن المطلق ، ويجد في معانيها جواب معانيه ، وتأتيه كأنَّها صُنعت له وحده ، وتجعل له في الزَّمان زمناً قلبيّاً يحصر وجوده في وجودها .

**وليس فنُّ الحبِّ شيئاً إلا استطاعةَ الحبيب أن يجعل شهوات المحبِّ شاعرةً به ، ممتلئةً منه متعلِّقةً عليه ، كأنَّ به وحده ظهورَ جسَدِيَّةِ هذا الجسد ، وروحانيَّة هذا الرُّوح ، وكل ما يتزيَّنُ به المحبُّ للمحبِّ فإنَّما هو وسائل من المبالغة لإظهار تلك المعاني التي فيه ؛ كيما تكبر ، فيدركها المحبُّ بدقَّةٍ ، وتثور ، فيحسُّها العاشق بعنفٍ ، وتستبدُّ ، فيخضع لها المسكين بقوَّةٍ .**

والشَّهوات كالطَّبيعة الواحدة في أعصاب الإنسان ، وهي تتبع فكره ، وخياله ، ولا تفاوت بينهما إلا بالقوَّة ، والضَّعف ، أو التَّنبُّه ، والخمود ، أو الحدَّة ، والسُّكون ، غير أنَّها في الحبِّ تجد لها فكراً ، وخيالاً من المحبوب ، فتكون كأنَّها قد غيَّرت طبيعتها بسرٍّ مجهولٍ من أسرار الألوهيَّة ، ومن هنا يتألَّه الحبيب وهو هو ، لم يزد ، ولم ينقص ، ولم يتغيَّر ، ولم يتبدَّل ، وتراه في وهم محبِّه يفرض فرضاً ، ويشرع شريعةً من حيث لا قيمة لفروضه ، وشريعته إلا في الشَّهوة المؤمنة به وحدها .

**ومن ثمَّ لا عصمة على المحبِّ إلا إذا وجد بين إيمانين ، أقواهما الإيمان بالحلال والحرام ، وبين خوفين ، أشدُّهما الخوف من الله ، وبين رغبتين ، أعظمهما الرَّغبةُ في السُّموِّ .**

**فإن لم يكن العاشق ذا دينٍ ، وفضيلةٍ ، فلا عصمة على الحبِّ إلا أن يكون أقوى الإيمانين الحرصُ على مكانة المحبوب في النَّاس ، وأشدَّ الخوفين الخوف من القانون . . . وأعظمَ الرَّغبتين الرغبةُ في نتيجةٍ مشروعةٍ كالزَّواج .**

فإن لم يكن شيءٌ من هذا ، أو ذاك ؛ فقلَّما تجد الحبَّ إلا وهو في جراءة كفرين ، وحماقة جنونين ، وانحطاط سفالتين ، وبهذا لا يكون في الإنسانين إلا دون ما هو في بهيمتين ! .

* * *

ثمَّ جاء الفصل الثَّالث ، وظهرت هي على المسرح ، ظهرت هذه المرَّة في ثوبِ مركيزةٍ[1] أوربيَّةٍ تخاصر عشيقاً لها ، فيرقصان في أدبِ أوربيٍّ متمدِّنٍ . متمَدِّنٍ بنصف وقاحةٍ ، متأدِّبٍ . . . متأدِّبٍ بنصف تسفُّلٍ ؛ مشروعٍ . . . مشروع بنصف كفرٍ ، هو على النِّصف في كلِّ شيءٍ ؛ حتَّى ليجعلَ العذراء نصف عذراء ، والزَّوجة نصف زوجةٍ . . !

وكان الَّذي يمثِّل دور العشيق فتاةً أخرى غلاميَّةً مجمَّمة الشَّعر[2] ممسوخةً بين

(١) « مركيزة » : هي زوجة المركيز ، والمركيز : النبيل الإيطالي .

(٢) « المجمَّمات » : هنَّ اللَّواتي يتَّخذن شعورهنَّ جُمَّةً ( بضم الجيم ) أي : يقصصنها ؛ كما يفعل نساء هذه الأيَّام تشبُّهاً بالرِّجال ، وقد كان ذلك ممَّا تصنعه نساءُ العرب ، ونهى الإسلام عنه كراهةً لهذا التَّشبُّه . فَقَصُّ الشَّعر ( على المُوْدَة ) هو التَّجميم . ( ع ) .

المرأة والرَّجل : فلمَّا رآها صاحبنا ؛ قال : هذا أفضل .

وهشَّت الحسناء ، وتبسَّمت ، وأخذت في رقصها البديع ، فانفصل عنِّي الصَّديق ، وأهملني ، وأقبل عليها بالنَّظرة بعد النَّظرة . كأنَّه يكرِّر غير المفهوم ؛ ليفهمه ، ورجع وإيَّاها كأنَّه في عالمٍ من غير زمننا ، تُقدِّمه عن عالمنا ساعةٌ أو تؤخِّره ساعةٌ ؛ وكانت جملة حاله كأنَّها تقول لي : إنَّ الدُّنيا الآن امرأةٌ ! وكان من السُّرور كأنَّما نقله الحبُّ إلى رتبة آدم ، ونقل صاحبته إلى رتبة حوَّاء ، ونقل المسرح إلى رتبة الجنَّة !

والعجب أنَّ القمر طلع في هذه السَّاعة ، وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف في الحديقة ، فكأنَّه فعل هذه ليتمَّ الحسن ، والحبُّ ، وأخذ شعاع القمر السَّماويّ يرقص حول هذا القمر الأرضيّ ، فكانت الصِّلة تامَّةً ، وثيقةً بين نفس صاحبنا وبين الأرض ، والسَّماء والقمرين .

ما هذا الوجه لهذه المرأة ؟ إنَّه بين اللحظة واللَّحظة يعبِّر تعبيراً جديداً بقسماته ، وملامحه الفتَّانة : كلُّ البياض الخاطف في نجوم السَّماء يجول في أديمه المشرق ، وكلُّ السَّواد الَّذي في عيون المها[1] يجتمع في عينيه ، وكلُّ الحمرة الَّتي في الورد هي في حمرة هاتين الشَّفتين .

ما هذا الجسم المتَّزن ، المتموِّج ، المفرَغ كأنَّه يتدفَّق هنا ، وهنا ؟ إنَّه جسمٌ كاملُ الأنوثة ، إنَّه صارخٌ صارخٌ ! إنَّه عالَم جمالٍ كما تقوله الفلسفة حين تصف العالم : فيه « جهة فوق » و « جهة تحت » لو امتدَّت له يدٌ عاشقة ؛ لجعل في خمس أصابعها خمس حواسّ .

ما هذا ؟ ما هذا ؟ لقد خُتم الرَّقص بقبلة ألقاها الخليل على شفتي الخليلة ، وكانت تركت خصرها في يديه ، وانفلتت تميل بأعلاها راجعةً برأسها إلى خَلف ، نازلةً به رُويداً رُويداً إلى الأرض ، هاربةً بشفتيها من الفم المطلِّ عليها ، وكان هذا الفم ينزل رُويداً ؛ ليدرك الهارب .

وقبل أن تقع القبلة التفتت لفتةً إلى . . . ثم تلقَّت القبلة ، أمَّا هو ، أمَّا مجنوننا ، أمَّا صاحب القلب المسكين . . .

* * *

(١) « المها » : البقر الوحشي .